

استلهام قضايا الموت والحياة عند الإغريق وتوظيفها في المسرح العربي مسرحية الملك أوديب لتوفيق الحكيم أنموذجا

Inspiration for the issues of death and life for the Greeks and their employment in the Arab theater , King Oedipus play to Tawfeek Al Hakeem as a model

د. غفار محمد

جامعة جيلالي اليابس - سيدي بلعباس (الجزائر) mouhghfour4334@yahoo.com

ملخص: (لا يتجاوز 10 اسطر)	معلومات المقال
عاش الإنسان منذ ظهوره على وجه الأرض مرتبطا ومتأثرا بعامل الموت والحياة وذلك من خلال إعمارها للأرض والاستفادة من خيراتها لضمان استمرار حياته عليها فكان يتقلب ما بين الحياة وما بين الموت ، أما الموت فقد أثر كثيرا في حاضره ومستقبله وتحديد مصيره ولهذا عبّر الإنسان عن هذه القضية المصيرية بتعبيرات فنية منذ القدم وتعبيرات أدبية وشعرية وفنية كما تجسد ذلك في مسرحية "الملك أوديب" التي ألفها الكاتب المسرحي الإغريقي "سوفوكليس" والتي أحيها من جديد الكاتب " توفيق الحكيم " ووظفها في المسرح العربي لكن برؤية جيدة ومغايرة للرؤية الإغريقية أسقط أحداثها على الواقع العربي الحديث مستلهما أهم عناصرها الفكرية والدينية والأخلاقية والفنية.	تاريخ الارسال: 2020/12/15 تاريخ القبول: 2020/12/17
	الكلمات المفتاحية: ✓ الكلمات المفتاحية: ✓ الكلمات المفتاحية: ✓ الكلمات المفتاحية:
<i>Abstract : (not more than 10 Lines)</i>	<i>Article info</i>
<i>Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article). Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article).</i>	<i>Received</i> 2020/12/15 <i>Accepted</i> 2020/12/17
<i>Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article). Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article).</i>	Keywords: ✓ Keyword: ✓ Keyword: ✓ Keyword:

المؤلف المرسل: د. غفار محمد

مقدمة :

تعتبر علاقة الانسان بالموت علاقة حياة ، واثبات أحدهما يعني اثبات الآخر، وهذه العلاقة الجدلية تمنح الانسان فرصة ادراك النقيض فتبقى رغبته في الحياة أكثر حضورا واستحوادا على مشاعره وفكره ، إن الموت جزء من الحياة وعنصر مكون للوجود ، ويبدو أن موت الكائن وحياته جزء من جدلية الكون كله ، ولا يمكن تصور وجود الحياة دون وجود الموت ، لذا شغل الموت الإنسان منذ بدء التاريخ ، وحاول البشر من خلال أساطيرهم التاريخية والدينية اكتشاف ماهية الموت على أمل التغلب عليه وتحقيق الخلود ، لكنهم أخفقوا وهربوا إلى الأمام رافضين الاعتراف بهذه الحقيقة واعتقدوا بوجود حياة أخرى تمكنهم من قهر الموت وتحقيق الخلود الأبدى.

وتعتبر "ملحمة جلجامش" المتعلقة بحضارة بلاد الرافدين مثلا واضحا على ماهية الموت ، فهي مغامرة لفهم الموت والتصدي له بالخلود ولكن تم اكتشاف حتمية الموت في أقدم الوثائق المعروفة لنا حول الموت ، من خلال موت أنكيديو واكتشاف "جلجامش" المدهش له وهو أنه سيلقى المصير الرهيب نفسه وذلك الأسى الذي لقيه صديقه الأقرب أنكيديو.

وجاءت الحضارة المصرية التي لم تحاول حل لغز الحياة والتغلب على الموت ، فجعلت الحياة الدنيا كلها مقدمات للحياة الأخرى ووقفت من ظاهرة الموت نفسها موقف واقعي ، فأمنت بحتمته واستسلمت له ، ولم تبحث عن أسباب قدومه أو مبررات هذا القدوم ، فهي تؤمن بفكرة الخلود من خلال البعث بعد الموت وأن الحياة الأخرى نعيم وجحيم ، سعادة للصالحين وشفاء للطالحين. أما الديانات الهندوسية فقد رفضت أن تستسلم أمام الموت واعتقدت بأن الجسد وحده هو الذي يموت أم الروح فهي خالدة⁽¹⁾.

ومما سبق يمكن القول أن الانسان لم يستسلم للموت ويظهر ذلك من خلال ابداعه لعالم أسطوري يتغلب فيه على الموت من خلال الانبعاث ،فكرة الانبعاث توجد في كل مكان وكل زمان وقد كانت وسيلة سحرية للشفاء في بدايات الطب القديم وهي التجربة الصوفية الأساسية في عدة ديانات والفكرة الأساسية في فلسفة الغيب خلال القرون الوسطى ، وتعد وهما طفوليا يراود الإنسان في مراحل مختلفة من حياته. وإذا كان الخوف من الموت هو الشعور العام عند كل إنسان فإن هذا الشعور يتناقص كلما زاد الإيمان بوجود إله واحد وأن هناك بعثا وحياة أخرى بعد الموت ، وأن هناك حسابا ونعيما وعذابا ، فإذا آمن الإنسان بكل ذلك تلاشى عنده الإحساس بالخوف من الموت وتحل بدلا منه سكينه دائمة.

وهكذا دخل الموت في تكوين فلسفات المجتمعات وقيمها ، وأسهم في رسم ملامح العلاقات والمذاهب الفكرية ثم جاءت الديانات التوحيدية فوضعت الحياة والموت في إطار فلسفي جوهره الموت ولحمته تلك العلاقة بين ما قبل الموت وما بعده⁽²⁾.

وقد شكّل الموت في الفكر الميثولوجي القديم هاجسا وجوديا عميق المستوى ، فمنذ أن بدأ الإنسان يتلمس واقعه الفيزيائي عبر محيطه الزماني والمكاني ، أخذ يبحث عن ذاته وسرّ وجوده من خلال ما يحدثه الزمن بالحياة والموت في أشياء الطبيعة - جامدة

كانت أو متحركة - من متغيرات بدت ترتسم في مخيلته حين رأى أبناء جلدته يأوون إلى مجاهل الموت ، فانتابه حينذاك شعور بالقلق والخوف ، بعد أن رأى هذه المتغيرات تبدد اعتقاده بخلود الحياة ، ولقد حاول الإنسان في كل زمان ومكان أن يقهر الزمان ويصرع الشر ، ويسحق الموت ولكنه لم يلبث أن تحقق من أن صراعه البائس ضد هذا الثالوث المارد الجبار إن هو إلا جهد ضائع لا بد من أن يبوء بالفشل والخيبة والدمار⁽³⁾.

1- ماهية الموت و الحياة :

1.1- ماهية الحياة :

- مفهوم الحياة في اللغة : مشتقة من : حيّا : الحياة ، نقيض الموت ، والحيّ من كل شيء : نقيض الميت ، والجمع أحياء ، والحيّ : كل متكلم ناطق، والحيّ من النبات ما كان طريّا يهتّر ، وقوله تعالى: (وما يستوي الأحياء والأموات)، وأحياء جعله حيّا ، وفي التنزيل : (أليس ذلك بقادر على إحياء الموتى).

واستحياء : أبقاه حيّا ، قال اللحياني : استبقاه ولم يقم بقتله ، وبه فسّر قوله تعالى : (ويستحيون نساءهم)⁽⁴⁾.

- مفهوم الحياة في الاصطلاح : الحياة في الاصطلاح هي ثبات الشيء على الحالة الأولى ، يضاده الفناء بنوعه وبالباقي ضربان : باق بنفسه لا إلى مدة وهو الباري تقدس ولا يجوز عليه الفناء ، والباقي نوعان ، باق بشخصه إلى أن يشاء الله أن يفنيه كبقاء الأجرام السماوية ، وبقا بنوعه وجنسه دون شخصه وجرمه كالإنسان والحيوان⁽⁵⁾.

و"إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش إلا إذا عرف أن لحياته معنى ... والمعنى الحقيقي للحياة - معنى الحياة - هو في المساهمة التي نقوم بها لمصلحة حياة الآخرين ، وهو أيضا في الاهتمام الحقيقي والخالص في التعاون معهم"⁽⁶⁾.

2.1- ماهية الموت :

- الموت في اللغة : جاء في لسان العرب أن الموت هو السكون ، وكل ما سكن فقد مات ، ويقال مات الرجل وهمد : إذ نام ، وماتت النار موتا ، برد رمادها ، ومات الحر والبرد باخ ، وماتت الريح : ركبت وسكنت ، ومات الماء بهذا المكان : إذ نشفت الأرض .

والموت: الجمع أموات وموتى، ضد الحياة ويطلق: الموت ويرد به ما يقابل العقل والإيمان نحو ما في التنزيل العزيز: (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس) ، و"مات : الحي ، موتا : فارقتة الحياة ، والشئ همد وسكن ، يقال : مات الريح : سكن ، والنار : بردت .

والموات : ما لا حياة فيه ، والأرض التي لم تزرع ولم تعمّر ولا جدي عليها ملك أحد"⁽⁷⁾.

يعرّف الموت بأنه " توقف معالم الحياة في الجسم الطبيعي من حركة ونمو وحس وتنفس وقدرة على التكاث والتغذي ، وهو نهاية مرحلة تنفصل عندها ثنائية الوجود الانساني (الروح والجسد) ليعود كل عنصر إلى عالمه الأزلي "

وقد ارتبطت مشكلة الموت بمفهوم الزمن والعالم المتغير فكل ما يحيط بالإنسان إنما هو في تغيير مستمر والإنسان وحده من أدرك خطورة هذه المشكلة وأحس بها ، فغدا أمام الموت مهزوما عاجزا حياله (8).

فلا تنفك صلة الإنسان بالزمن فهو العمر الذي يعيشه والماضي الذي سمع به والمستقبل الذي تلوح بوادره ، فممرور الزمن ينتقل الإنسان من مرحلة إلى أخرى من مراحل حياته ، وبمروره تتغير الأحوال وتبدل الأوضاع ، وبين هذا وذاك تتنوع الأحاسيس وتبدل المشاعر (9).

لا يطرح الإنسان قضية الخلق إلا ويتبعها بقضية الموت ، ذلك أن الموت يقتلع الحقيقة الإنسانية من وجودها ويدفع بها إلى النهاية والفناء ، فالموت إذن هو حادث الحوادث ، وإن الموت والحياة وجهان لحقيقة واحدة تعكس قانون الطبيعة الأزلي وهذه الحقيقة قد استحوذت على الفكر البشري وأثارت حلقة من التساؤلات الملحة التي راح يطرحها ذلك السير نحو المجهول (10).

3.1- الموت في الديانات السماوية :

يعد الموت سر من أسرار الحياة ، يقول الله تعالى : (كل نفس ذائقة الموت) ، والموت ظاهرة حتمية على الأحياء وربما يكون الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يؤرقه الموت وربما لا يقلقه شئ في حياته أكثر من كلمة موت .
أ- الموت في الديانة اليهودية :

تناولت التوراة موضوع الموت واحتل مرتبة مهمة في أفكار العبرانيين وسادت في صدر العهد القديم النظرية التي تحدثت عن أصل الموت وأن الموت يجلب بالعالم من خلال خطأ الإنسان الذي خلق لكي يحي لا ليموت والرب منحه شرارة الحياة وقدر له العيش على الأرض التي أعدها له بل أنه حذره مما لا ينبغي له أن يأتيه كي لا يسقط ضحية الموت كما جاء في الإصحاح - سفر التكوين - : "وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها" ، فهناك آيات في التوراة تشير إلى الحياة الأخرى والاهتمام بها والإيمان بالبعث والحساب .

ب- الموت في الديانة المسيحية :

اعتبرت الديانة المسيحية الموت أعظم الأعداء وأسوأهم ولكن هذا العدو تم قهره عن طريق صكوك الخلود ، وغدت الطقوس السرية لتطهير البدن وإعداده للتجلي والسمو من أمور الحياة اليومية ، واختلفت المسيحية بشأن مسألة البعث وخلود الروح وشمولية الثواب والعقاب ، وعندما سخر الفلاسفة من طرح مسألة البعث لجأ اللاهوتيون المسيحيون إلى إعطاء الموت ثلاث معاني ، الموت الطبيعي الذي هو موت روحي يعبر عنه وضع الانسان خارج الإيمان المسيحي وهناك موت صوفي ، وهو المشاركة في الحياة الإلهية التي تجري خلال هذا الوجود الأرضي على الرغم من الموت الطبيعي (11).

ج- الموت في الديانة الإسلامية :

عرّف "القرطبي" الموت في كتابه "التذكرة" : أن الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقتها وحيلولة بينهما وتبدل حال ، وانتقال من دار إلى دار .

وهذا يؤكد أن مبدأ الفناء معدوم تماما في العقيدة الإسلامية ، وقد أفاض القرآن في ذكر الموت لما فيه من عظيم الأثر في ترقيق القلوب وتهذيب النفوس وتمحيص الذنوب والتزهيد في الدنيا والعمل للدار الآخرة ، فقد

ورد لفظ الموت مصدرا اثنتين وخمسين مرة بينما وردت خمس وسبعون آية ذكرت الموت في جميع اشتقاقاته (12).

د- الموت في الفكر الفلسفي الإغريقي :

عرف الانسان القديم قوة الموت القاهرة الباطشة فراح يتصور النهاية المأساوية التي سيؤول إليها عاجلا أم آجلا ، باعتبار الموت ذلك الشيء الرهيب المخيف ، الذي يعد ذروة الحياة وقمة اكتمالها بوصفه آخر المحن التي يتعرض لها الإنسان وأشدّها قسوة والاختبار الحقيقي لقيمته. غير أن نظرة "سقراط" للموت كانت مختلفة حيث أنه كان يرى أن الموت قد يكون خيرا من الحياة ، أما "أفلاطون" فيرى أن الموت هو انعتاق النفس من الجسد فهو يصورها كما لو كانت سجينة وبوسعها الهروب عند الموت واستعادتها لخلودها .

إلا أن فلسفته سرعان ما تقوضت أمام ما جاء به تلميذه "أرسطو" الذي جعل النفس مبدأ الحياة وهي للجسم الحي بمنزلة الصورة والطبيعة لغير الحي ، أي أنها مبدأ الأفعال الحيوية على اختلافها ، وهي ذات ثلاث مستويات : النفس النامية ، النفس الحاسة ، والنفس الناطقة ، وهكذا ينتقل "أرسطو" من خلود النفس كما طرحه "أفلاطون" إلى خلود العقل لأنه لا يفنى بل يطلق سراحه ثم يعاد امتصاصه عند الموت .

لقد اختلفت النظرة إلى الموت في الفلسفة اليونانية بين الإيمان بالتناسخ والدعوة إلى مهادنة الموت والتشاؤم أو التفاؤل اتجاهه ، وقد انتقلت هذه الآراء إلى ما بعدها من فلسفات فأثرت فيها بشكل أو بآخر ، إما بالموافقة والتبني أو بالتصدي لها ومعارضتها بحيث أنها حيّت آمال الكثير من فلاسفة العصر الحديث ، فلم تجب عن تساؤلاتهم ولم تنزل حيرتهم إزاء هذا الموجود المبهم (13).

2- توظيف الموت والحياة في مسرحية "أوديب" :

- تمثلت توظيف قضية الموت والحياة في مسرحية "الملك أوديب" في معالجة توفيق الحكيم لهذه القضية في مسرحيته من خلال تأكيده على أهمية الموت والحياة في حياة الإنسان ، حيث أن نجاة "أوديب" من الموت شكل منعظا كبيرا في مستقبله وتوليه مقاليد الملك والحكم وذلك بعد محاولة والده الملك "لايوس" قتل ابنه والتخلص منه بعد النصيحة التي قدمها له الكاهن "ترسياس" بقتل "أوديب" عندما جاءه وحي الآلهة بوجوب قتله خشية من أن يكبر هذا الطفل وعندما يكبر سوف يقوم بقتل والده الملك "لايوس" ويتزوج بوالدته الملكة "جوكاستا" ، فقد شكّل حادث النجاة من الموت من طرف الراعي وحياته التي حياها "أوديب" شكّل منعرجا كبيرا في قصة المسرحية وفي حياة "أوديب" ومنعظا خطيرا في تحديد مصيره والده الملك "لايوس" الذي راح ضحية ابنه "أوديب" حين قتله عند لقائه عند مدخل مدينة طيبة .

- شكّلت أيضا قضية حياة "أوديب" وزواجه من أمه الملكة "جوكاستا" تحولا كبيرا في مسار المسرحية وفي تصاعد أحداثها وفي تحديد مصيره ، حين ارتكب أكبر جريمة بشعة قد يرتكبها إنسان في حياته وهو زواجه من أمه وقتله لوالده ، وهي جريمة لم يشهد لها التاريخ البشري مثيلا من بداية الخلق إلى يومنا هذا ، فكان الموت رحمة له ونجاة لو مات في صغره ، بينما كانت حياته تعاسة له وشؤما وعذابا له طوال حياته .

1.2 - تعريف بأسطورة أوديب :

أسطورة أوديب أسطورة قديمة ترجع إلى أبعد العصور، فقد تحدثت بها الأوديسة في نشيدها الحادي عشر، وهذا يؤكد على أصلها الإغريقي ، بحيث أنها تعبر عن جانب من الجوانب الحياة الإغريقية ، وتصور أشياء عرفها الإنسان الإغريقي⁽¹⁴⁾ ، وهذا المقطع من الأوديسة لهوميروس الذي يشير إلى هذه الأسطورة على لسان أوديسيوس :

" وأبصرت أم أوديسيوس ، أبيكاستي الفاتنة التي قامت بعمل وحشي في جهالة من التفكير إذ قد تزوجت إنها... بعد أن قتل أباه فتزوجها "

ويذكر هوميروس أن أسطورة أوديب وردت في النشيد الحادي عشر من من الأوديسة ، وذلك من البيت 271 حتى 280⁽¹⁵⁾، ولكن الآلهة كشفت هذه الأمور للبشر في الحال ، ولكن مع ذلك فإن سيدا على الكادميين في طيبة الجميلة، يعاني الخن بسبب خطط الآلهة الضارة ، أما هي فقد علقت أنشودة في قالب عالي ، وقد استبدت بها هبطت إلى بيت هاديس ، الحارس القوي ، وشنقت نفسها ، وخلفت وراءها محتالا يسر لها .

وتعتبر مسرحية "أوديب ملكا" لسوفوكليس هي من أهم المعالجات و أولها لأسطورة أوديب ، وأيضا لأنها العمل اليوناني الوحيد الذي يعالج أسطورة أوديب ، والذي تبقى على مر الزمن ، فتأثر به عدد كبير ممن عالجوا أو استوحوا من الأسطورة⁽¹⁶⁾ .

غير أن بعض الدارسين يرى مذهبا آخر في تحقيق نشأة هذه الأسطورة ، وهو ما كتبه "كتو" عن أثر "هيروdot" في شيوع هذه القصة التي ترجع في الحقيقة إلى أصل فارسي ، وهي تشير إلى قصة ميلاد قورش، وحكاية ذلك الطفل النابه الذي سيولد ، ويجاول البعض قتله، وتفشل المحاولة، وتتحقق النبوءة على نحو مفرغ، وتعتبر أسطورة أوديب صورة إغريقية لهذه القصة⁽¹⁷⁾ .

فهي في جوهرها نفس القصة ، و لكنها عند "سوفوكليس" تحمل مزيدا من الدلالة لا حد لها، وهذا يشير إلى أن الإغريق عرفوا قصة "قورش" نتيجة لما كان بينهم من اتصال بينهم و بين الفرس في حروب القرن السادس، و أن الإغريق أعجبهم القصة فأضفوا عليها طابعهم حتى كاد الأصل الأجنبي لها ينسى، ومن الطبيعي أن تتبادل الشعوب التأثير والتأثير، وتتشرك أحيانا في صور التعبير بلا تأثر ولا تأثير بل للتشابه في الطبيعة و في الظروف⁽¹⁸⁾ .

2.2 - ملخص مسرحية أوديب :

تقول الأسطورة أن الملك "لايوس" وزوجته "جوكاستا" كانا يعيشان في مملكة "طيبة" فأوحى الآلهة عن طريق الكاهن "ترسياس" ** بأن الملك سيولد له طفل وعندما يكبر سوف يقتله و يقتل أمه ، يقوم الملك بنفي الطفل ويأمر الراعي أن يأخذه إلى مكان بعيد ليموت ، لكن يقدر للطفل أن يعيش ويكبر ويعود إلى مدينة طيبة ودون علمه يقوم بقتل والده الملك ويصبح

ملكاً على "طيبة" ، ويتزوج دون أن يعلم بأمه ، ثم يصيب المدينة البلاء ، ويموت الناس ، ولا يعرفون سبب البلاء ، عندئذ يخرج "أوديب" ملك المدينة إلى المعبد (دلف) ليعرف سبب البلاء ، فيجئ الوحي من عند الآلهة - بواسطة الكاهن - بأن أوديب الملك هو سبب البلاء الذي عمّ المدينة ، فعندئذ يقوم أوديب بفقأ عينيه وتقتل جوكاستا نفسها ، وينفى هو إلى خارج المدينة (19).

يثير اختيار الحكيم لقصة أوديب تساؤلات كثيرة ، لأن لهذه القصة ارتباطاً خاصاً ببيئتها ومعتقدات هذه البيئة وأوضاعها. أراد الحكيم أن يجرد القصة من بعض المعتقدات الخرافية التي تأبأها العقلية العربية الإسلامية ، ليس طبعياً أن يعيد الحكيم الأسطورة في نفس الإطار الذي وضعها فيه "سوفوكليس" من قبل ، وكان لابد من إدخال بعض التحوير في هذا الإطار ، كما صنع غيره من المؤلفين الذين تناولوا نفس الأسطورة ، وليس هذا شأن المؤلف المحدث مع الأسطورة ، بل هو شأن المؤلف القديم كذلك ، شأن "سوفوكليس" نفسه .

إذن ليس غريباً على الكاتب المسرحي أن يدخل بعض التعديل والتحوير في الأسطورة التي يتناولها لأنه يريد أن يقول شيئاً أكثر من الأسطورة ، وإذا كانت الشخصيات الأسطورية ترمز إلى مفاهيم إنسانية ، فيجب تطوير هذه المفاهيم بما يتلاءم مع الفكرة الإنسانية ووضع الإنسان خلال العصور ، فلا ضير أن يكون هناك أوديب واحد تعرفه الأسطورة ، ومائة أوديب يعرضهم الكتاب عبر التاريخ .

لقد كتب الحكيم في مقدمة مسرحيته عن سر اختياره لهذه الأسطورة (20) ، حيث يقول : "لماذا اخترت أوديب بالذات...؟ الأمر قد يبدو عجيباً... ذلك أني قد تأملت طويلاً ، فأبصرت فيها شيئاً لم يخطر على بال "سوفوكليس" !... أبصرت فيها صراعاً ليس بين الإنسان والقدر ، كما رأى الإغريق ، بل أبصرت عين الصراع الخفي الذي قام في مسرحية "أهل الكهف"... هذا الصراع لم يكن فقط بين الإنسان والزمن ، كما اعتاد قراؤها أن يروا ، بل هي حرب أخرى خفية قل من التفت إليها... حرب بين "الواقع" وبين "الحقيقة" (21) ومعنى الصراع الذي تمثل له خلالها غير ذلك المعنى الشائع الذي يجعل المسرحية تصويراً للصراع بين الإنسان والقدر ، وقد كان المعنى الجديد الذي رآه الحكيم في أوديب أنه تصوير للصراع بين الحقيقة والواقع (22).

3- توظيف قضية الموت والحياة في مسرحية "الملك أوديب" :

يعتبر "أرسطو" أول من اهتم بالأسطورة والمسرحية التي جسدتها ، التي ألفها "سوفوكليس" ، وبواسطتها استطاع أرسطو تصوير المأساة في كتابه فن الشعر ، فأوديب نموذج للمأساة الكاملة الناجحة ، ولعله لذلك ذاع صيت هذه المسرحية عبر مختلف العصور ، وخاصة منذ القرن السابع عشر ، فلقيت اهتماماً كبيراً من رواد المدرسة الكلاسيكية الحديثة ، وعلى الأخص المدرسة الفرنسية ، فعني بها هؤلاء الكتاب عناية خاصة ، وارتبطت لديهم هذه العناية بطبيعة الحال بكتابة أرسطو عن الفن التراجيدي في كتابه "فن الشعر".

ولم يقتصر الاهتمام بهذه المسرحية على كتاب المسرح ، يستنبطون منها ما كان يعنيه أرسطو بفن المأساة ، حتى يلتزمون في كتاباتهم ، بل لقد عني بها كذلك علماء النفس وعلماء الأخلاق والمؤرخون وكل المهتمين بدراسة الإنسان ومصيره، ولكن الواضح أن هؤلاء الدارسين لها لا يتفقون في فهمها أو تأويلها إذ إنه من الغريب أن يتفقوا ، ذلك أن المسرحية متعددة الجوانب ، ففيها القضايا الفنية وفيها القضايا الفلسفية والخلقية ، ثم فيها القضايا الدينية ، وفيها قبل كل ذلك قضية الإنسان (23) .
ومن هنا كانت نظرة كل باحث إلى هذه المسرحية الأسطورية مركوزة في ناحية أو جانب من جوانبها ، كما أن كل دارس يتناول المسرحية - قبل كل شيء - من خلال الإطار الحضاري الذي يعيش فيه ، والركيزة الثقافية التي تمثل محصول من التجربة ، وموقفه من الحياة ، وتفسيره لها .

ففي عصر الكلاسيكية مثلا، أو - كما يسمونه - عصر العقل، نجد "كورني" و"راسين" يتأثران في مسرحهما بذلك التفسير العقلي لمسرحية أوديب ، وبينان أعمالهما الفنية على أساس منه (24) .
ويتأثر "فولتير" بشروح "كورني" ، فيبرز قصة أوديب على أنها في أساسها صراع بين أوديب القوي الفاضل وبين الآلهة التي هبطت إلى مستوى الإنسان ، يساعدها ويجرضها على الشر الكاهن المفسد "ترسياس" ، فيجعل منها بذلك دعوة ضد الدين، لها هدفها الأخلاقي الذي لا يمكن أن يخطئه الإنسان ، وهو إشباع حاجات العقل المتحرر.

ثم يأتي "نيتشه" وهو يمثل العصر الرومنتيكي، متأثرا بمسرحية صديقه "فاجنر" المسماة "ترستان وإيزولده"، تكون وجهة نظره مختلفة اختلافا كليا عن الوجهة السابقة ، ويخرج من ثم إلى نظرية أخرى عن العمل المسرحي ، والحقيقة أن كل المعارضات الكثيرة لمسرحية سوفوكليس ، والتي قام بها مؤلفو المسرحية على مر العصور ليست إلا لونا من التفسير يقوم به كتاب المسرح أنفسهم، وهم أنفسهم أولئك المفسرين الذين يصورون أولا وقبل كل شيء بياناتهم الثقافية والحضارية بعامة خلال كل تفسير (25) .

1.3 - الموت والحياة بين الأسطورة و التراجيديا :

وفي أوديب الحكيم ، ينطلق فيها من أن جو الأسرة في المسرحية هو المحور الذي تدور حوله فكرة المأساة ، لذا تأتي علاقة "أوديب" بأسرته في المقام الأول ، وهو يحرص على ألا تنكشف الأكذوبة التي تنبني عليها حياته ، والمؤلف يقدم هنا صورة للتماسك الأسري الشرقي ، وحتى حينما يسقط "أوديب" فإن "الحكيم" يخفف من حدة السقطة ومن وطأتها ، ولهذا الغاية أيضا غير أصل النبوءة التي تنبأت بمولد طفل سيقتل أباه ويتربع على عرشه ، ويتزوج أمه ، فجعلها أكذوبة من صنع العراف "ترسياس" ثم إن "أوديب" يعرف حقيقته منذ البداية ، ويعيش عليها ، ويقدم الحكيم تفسيراً جديداً للنبوءة ، ويجعل عملية الكشف عن سر "أوديب" تتم في مناخ درامي بارد ، إذ يتم اكتشاف الحقيقة من خلال عبارات قليلة للراعي ، وفي ذلك طمس لأحد أهم قوانين التراجيديا ألا وهو الاكتشاف الذي ينشأ عنه التحول .

وغير المؤلف من شخصية "ترسياس" ، فلم تعد الشخصية الأسطورية ، وإنما صار شخصية مآكرة عابثة ، وجعل من سخريته و إلهاده دليلاً على وجود الله (26) .

وقد أدت المبالغة في رسم مواصفات شخصية "ترسياس" أن غطت على المأساة نفسها، وصارت لا تقل أهمية عن "أوديب" بل تتوقف عليه، حتى إن العراف ظهر كالبطل الحقيقي للمسرحية، وتنتهي المسرحية بأن يفقأ أوديب عينيه، ويقرر الرحيل بمفرده، لكن ابنته "أنتيجون" تظهر استعدادا لمرافقته، وفي ذلك تخفيف من وطأة العزلة التراجيدية.

ثم إن شخصية "أوديب" أفلتت من يد "الحكيم"، فلم يستطيع أن يزيل التناقض الذي أوقعها فيه، هذا التناقض أبعد الشخصية عن أن تكون شخصية مأساوية، واختلط أمرها دون أن يكون لديها وضوح ظاهر، إن "أوديب" الحكيم لم يحل لغزا ولم يصرع أبا الهول، فليس هناك أصلا وجود لأبي الهول، وإنما هو أسد صرعه "أوديب".

ولقد كشف "أوديب" كل الأسرار منذ بداية المسرحية، وبذلك لم تعد هناك دراما على الإطلاق، ولا محل للدراما إذا انكشف السر وضاع عنصر التشويق والصراع⁽²⁷⁾.

2.3- البطل التراجيدي في مسرحية أوديب :

يفتقد البطل في مسرحية أوديب الذي هو أوديب نفسه إلى الكثير من سمات البطولة التراجيدية، فهو لم يحل ألغازا ولم يصرع أبا الهول، وبطل الحكيم شديد الارتباط بالواقع و بحياته الأسرية التي يظل متشبثا بها حتى بعد اكتشافه الحقيقة، وحين تريد "جوكاستا" الانتحار لعدم قدرتها على احتمال ما حدث فإن "أوديب" يظل متشبثا بها وحياته معها، وهو يختلف عن الأبطال التراجيديين الذين يرفضون المساومة في مواجهة القوى التي تتجاوزهم، ويسرون في اختيارهم حتى النهاية، ولتكن النهاية بعد ذلك مفاجئة، فلا أهمية لذلك مادام البطل قد اختار مصيره وطريق ذلك المصير، ومادامت البطولة التراجيدية هي بالنسبة للشخصية الإنسانية اختيار لتجربة الحرية، وعندما يجد أوديب نفسه مخيرا بين أمرين، وبين السعادة أو الفاجعة فإنه يختار القبول والمساومة والنجاة، وعندها يخيره الكاهن بين الموت أو النجاة⁽²⁸⁾.

3.3 - الموت والحياة والصراع بين الإنسان والقدر :

لا يؤمن الحكيم، بتدبير سابق من جانب الإله، وهو لذلك ينفي تماما النبوءة التي أوصى بها الإله "أبوللو" حيث كان حذرا في الأسطورة وفي مسرحية سوفوكليس من ذلك الولد الذي سيرزق به "لايوس" من صلبه فيشب ويقتل أباه ويتزوج من أمه ويرث العرش بعده.

ولذلك فقد جعل الحكيم "ترسياس" هو الذي يوصي، قبل أحداث المسرحية الملك "لايوس" بقتل ابنه موها إياه بأن السماء هي التي ألهمته ذلك أو أوحى إليه به، لأن الولد إذا شب فكبر فسيقتل أباه ويتزوج أمه وينفذ إرادة "ترسياس" لا إرادة الآلهة أو وحيهم بأن يُقصي عن عرش طيبة وريثه الشرعي ثم يجلب إليه آخر، بعد مقتل "لايوس"، ظنا منه أنه غريب عن العرش و البلد، اختاره بمحض إرادته فأودعه سرا الوحش ليهلكه وقد كان له ذلك وآل العرش إليه ويد الملكة.

هكذا غير الحكيم في النبوءة لتخدم غرضه و مسرحيته، ورأى أنه لا يستطيع أن ينسب إلى الإله إرادة شريرة ماكرة، كالإرادة الظالمة التي ألزمت أوديب قضاءه المنحوس، ولذلك نراه يفسر في مسرحيته بمهارة فائقة ما زعمه "سوفوكليس" من أن ما تردى

فيه أوديب من إثم إنما كان تنفيذاً لحكم القضاء والقدر، فزعم الحكيم أن الذي دبر هذه المأساة إنما كان كاهناً أعمى يسمى "ترسياس"، نقم على "لايوس" ملك طيبة وأسرته وأراد أن يعمل لكي ينتقل الملك إلى غير هذه الأسرة فأوهم "لايوس" بأن العرافة قد تنبأت بأن ابنه سيقته ويتزوج من أمه ويعتلي العرش.

وظل ترسياس يتابع خطوات أوديب ويدبر المكائد، والخلاصة أن الحكيم يرى أن الإله لا يمكن أن يدبر كل هذا الشر لأوديب، والشر لا ينبع إلا من البشر، وما يصيبهم من هذا الشر فهو من أنفسهم.

ورغم أن الحكيم غير من نبوءة الأسطورة لكي ينفي مسألة القدر وأثره في حياة الإنسان، إلا أن الأسطورة هذه نفسها مبنية على أساس الصراع بين الإنسان والقدر، ومهما حاول الهروب من هذه القضية فإنها تبقى قضية صارخة بموضوع القدر وأثره في حياة الإنسان، وهو أساس المسرحية الأصلية لسوفوكليس، فإذا ذهب الأساس ذهبت المسرحية وسقطت كلياً⁽²⁹⁾.

- خاتمة :

تميز مضمون هذا البحث بالإشارة إلى مجموعة من النتائج المهمة والمتمثلة في ما يلي :

- تعتبر علاقة الانسان بالموت علاقة حياة ، واثبات أحدهما يعني اثبات الآخر .
- جميع الديانات السماوية عاجلت قضايا الموت والحياة وعلاقتها بحياة الإنسان وأثرها فيه كما أنها اعترفت بالموت وأهميته في تقويم سلوك وأخلاق .
- أنكرت الديانات الوضعية حقيقة الموت وحاولت التهرب منه وتجاهله لكن دون جدوى.
- عالج المسرح الإغريقي قضايا الموت والحياة من خلال عدة مسرحيات أهمها مسرحية : أوديب ملكا ، لسوفوكليس .
- تم توظيف قضايا الموت والحياة الإغريقية في المسرح العربي من طرف عدة مؤلفين مسرحيين ، من أهمهم : توفيق الحكيم الذي أبدع في كتابته لمسرحية " الملك أوديب " التي استلهمها من المسرح الإغريقي لكن برؤية جديدة مخالفة لرؤية سوفوكليس .
- تمثلت قضية الموت والحياة في مسرحية "الملك أوديب" في معالجة توفيق الحكيم لهذه القضية في مسرحيته من خلال تأكيده على أهمية الموت والحياة في حياة الإنسان ، حيث أن نجاة "أوديب" من الموت شكل منعطفا كبيرا في مستقبله وتوليه مقاليد الملك والحكم وذلك بعد محاولة والده الملك "لايوس" قتل ابنه والتخلص منه بعد النصيحة التي قدمها له الكاهن "ترسياس" بقتل "أوديب" عندما جاءه وحي الآلهة بوجوب قتله خشية من أن يكبر هذا الطفل وعندما يكبر سوف يقوم بقتل والده الملك "لايوس" ويتزوج بوالدته الملكة "جوكاستا"
- تعتبر قضية الموت وأثرها في حياة الإنسان من أعظم أسباب التراجيديا الإنسانية ذلك أن الموت دائما ما يكون سببا في حصول مآسي البشر الذين يتقاتلون على الحياة بإفناء بعضهم البعض فكان هذا الموت والقتل والفناء للجزء المتغلب منهم عاملا مهما من عوامل ظهور المآسي الإنسانية في حياة البشر والتي تناقلها المؤرخون والفلاسفة والفنانون من خلال - كتاباتهم وأفكارهم ومسرحياتهم .

- الموت أحيانا يكون عاملا مهما في خلود الإنسان بروحه رغم موته ومغادرته للحياة ، فكّم من بطل وزعيم ومفكر وفنان اشتهر من خلال موته وليس في حياته وسبب ذلك توضيحات الإنسان بحياته من أجل دينه ووطنه أحيانا ومن أجل شرفه مبادئه أحيانا أخرى.

- هوامش البحث :

- 1- ينظر: ملاك سعيد محمد شعلو ، رؤية الموت في شعر محمد القيسي ، رسالة ماجستير ، جامعة الشرق الأوسط ، 2016 ، ص 26-27.
- 2- المرجع نفسه ، ص 28.
- 3- عاطف محمد كنعان ، فلسفة الموت في قصيدة الرثاء عند شعراء هذيل ، مقال ، جامعة البترا ، عمان ، الأردن ، ص 5.
- 4- ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، بد ط ، ص 1073-1074.
- 5- ينظر: سعدية أحمد مصطفى ، البقاء والفناء في شعر أبي العتاهية ، دار مكتبة الحامد ، عمان ، 2010 ، ص 19.
- 6- ألفريد أدلر ، معنى الحياة ، ترجمة : عادل نجيب بشرى ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2005 ، ص 19.
- 7- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، ط 4 ، القاهرة ، 2004 ، ص 890.
- 8- سناء سلمان عبد الجبار ، ثنائية الموت والحياة عند نازك الملائكة ، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية ، العدد : 5 ، 2007 ، ص 173.
- 9- محمد شادو ، دلالة الموت في الشعر العربي المعاصر ، رسالة ماجستير ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، 2013 ، ص 73.
- 10- حياة هروال ، دلالة الموت في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر ، رسالة ماجستير ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2009 ، ص 20.
- 11- ينظر: حنان أحمد خليل الجمل ، الموت في الشعر العباسي ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس ، 2003 ، ص 1-3.
- 12- المرجع نفسه ، ص 4.
- 13- المرجع نفسه ، ص 22-23.
- 14- ينظر: عز الدين اسماعيل ، قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر ، دار الفكر العربي ، 1980 ، ص 61.
- 15- ينظر: كولين استيبه ، أسطورة أوديب ، ترجمة : زياد العودة ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، ط 2 ، 2012 ، ص 14.
- 16- مصطفى عبد الله ، أسطورة أوديب في المسرح المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1983 ، ص 16-17.
- 17- ينظر: عز الدين اسماعيل ، قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 61.
- 18- المرجع نفسه ، ص 62.
- * - ينظر نص مسرحية "أوديب ملكا" لسوفوكليس ، عبد الرحمن بدوي ، تراجميات سوفوكليس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ص 97-147.
- ** - وتكتب أحيانا "ترزياس" وهذا راجع إلى اختلاف الترجمة العرفية إلى العربية فوجب التنبيه.
- 19- ينظر : محمد مندور ، مسرح توفيق الحكيم ، دار تحفة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ط 3 ، ص 73-74.
- 20- ينظر: عز الدين اسماعيل ، قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 106.
- 21- توفيق الحكيم ، الملك أوديب ، مكتبة مصر ، بد ط ، بد س نشر ، ص 41-42 .
- 22- ينظر : عز الدين اسماعيل ، قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر ، مرجع سابق ، ص 108.
- 23- المرجع نفسه ، ص 67.
- 24- المرجع نفسه ، ص 68.
- 25- المرجع نفسه ، ص 68.
- 26- ينظر : عبد الواحد ابن ياسر ، المأساة والرؤية المأساوية في المسرح العربي الحديث ، دار الأمان ، الرباط ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2013 ، ص 272-273 .
- 27- المرجع نفسه ، ص 274 - 275 .
- 28- المرجع نفسه ، ص 285 - 286 .
- 29- ينظر: مصطفى عبد الله ، أسطورة أوديب في المسرح المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1983 ، ص 90-91.